(٤)

أوصاف القلوب

روى ابن ماجه عَنِ النَّوَّاس بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، إِنْ شَاءَ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ**»، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**يَا مُثَبِّتَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ**»(١).

وروى الإمام أحمد عن أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُكْثِرُ فِي دُعَائِهِ أَنْ يَقُولَ: «**اللَّهُمَّ مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**». قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَ إِنَّ الْقُلُوبَ لَتَتَقَلَّبُ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، مَا مِنْ خَلْقِ اللهِ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ بَشَرٍ إِلَّا أَنَّ قَلْبَهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ، فَإِنْ شَاءَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ، فَنَسْأَلُ اللهَ رَبَّنَا: أَنْ لاَ يُزِيغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا، وَنَسْأَلُهُ: أَنْ يَهَبَ لَنَا مِنْ لَدُنْهُ رَحْمَةً؛ إِنَّهُ هُوَ الْوَهَّابُ**»(٢).

جدير بالمسلم -مع المواظبة على هذا الدُّعاء-: أن يعرف أوصاف القلوب الزَّائغة وأحوالها؛ ليعرف مقدار ما ناله وظفر به من خير وعافية، ومقدار ما سلَّمه الله منه من شرٍّ وفساد؛ ليحمد الله على العافية، ويسأله:

---

(١) رواه ابن ماجه (١٩٩)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

(٢) رواه أحمد (٢٦٥٧٦)، وصحَّحه الألبانِيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٢٠٩١).

المعافاة الدَّائمة، وأن يحفظ له قلبه ويُسَلِّمه مِنَ الزَّيغ والانحراف. خاصَّة وأنَّ القلب سريع التَّقلُّب، فعَنِ الْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَقَلْبُ ابْنِ آدَمَ أَشَدُّ انْقِلَابًا مِنَ الْقِدْرِ إِذَا اجْتَمَعَ غَلَيَانًا**». رواه أحمد والحاكم(١).

وعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ هَذَا الْقَلْبَ كَرِيشَةٍ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، يُقِيمُهَا الرِّيحُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ**». رواه أحمد وابن ماجه(٢).

وذلك لشدَّة تأثير الفتن على القلوب.

وقد ذكر الله أوصافًا عديدة للقلوب المريضة العليلة في كتابه تحذيرًا وإنذارًا من تلك الحال(٣).

فمن هذه الأوصاف: العمى، قال تعالى: ﴿**فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ**﴾ [الحج:٤٦]. والمعنى: أنَّه معظم العمى وأصله، وهو العمى الضَّارُّ في الدِّين؛ لأنَّه بسببه لا يبصر الحقَّ ولا يشاهده، كما لا

---

(١) رواه أحمد (٢٣٨١٦)، والحاكم (٣١٤٢)، وصحَّحه الألبانِيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (١٧٧٢).

(٢) رواه أحمد (١٩٧٥٧) واللَّفظ له، وابن ماجه (٨٨)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

(٣) انظرها بتوسُّع في شفاء العليل لابن القيِّم (١/ ٢٩٩ - ٣٣١).

يشاهد الأعمى المرئيَّات.

وليس المراد: نفيَ العمى الحسِّيِّ عَنِ البصر، كيف وقد قال تعالى:﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ [النُّور:٦١]، وقال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ [عبس:١-٢]. وإنَّما المراد: أنَّ العمى التَّامَّ في الحقيقة عمى القلب، حتَّى إنَّ عمى البصر بالنِّسبة إليه كلا عمى، حتَّى إنَّه يصحُّ نفيه بالنِّسبة إلى كماله وقوَّته، وهذا كقوله ﷺ: «**إِنَّمَا الرِّبَا فِي النَّسِيئَةِ**»(١). وقوله: «**إِنَّمَا الْمَاءُ مِنَ الْمَاءِ**»(٢). وقوله: «**لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، إِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ**»(٣). وقوله: «**لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، إِنَّمَا الْمِسْكِينُ الَّذِي لَا يَجِدُ مَا يُغْنِيهِ، وَلَا يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ**»(٤). وقوله: «**لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ**»(٥). فلم يُرِد: نفي الاسم عن هذه المُسَمَّيات، إنَّما أراد: أنَّ هؤلاء أولى بهذه الأسماء وأحقُّ ممَّن يُسَمُّونه بها، فهكذا قوله: لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب الَّتِي في الصُّدور.

---

(١) رواه مسلم (١٥٩٦).

(٢) رواه مسلم (٣٤٣).

(٣) رواه البخاريُّ (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١).

(٤) رواه البخاريُّ (١٤٧٩)، ومسلم (١٠٣٩).

(٥) رواه البخاريُّ (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

ومن أوصافها: ما ورد في قوله تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمَّد:٢٤]. أي: بل على قلوب أقفالها، فهي مُطْبَقَة لا يخلص إليها شيء من معانيه، قد أغلق على ما فيها مِنَ الشَّرِّ وأقفلت، فلا يدخلها خير أبدًا. وكأنَّ القلب بمنزلة الباب المرتج، الَّذِي قد ضُرِب عليه قفل؛ فإنَّه ما لم يفتح القفل لا يمكن فتح الباب والوصول إلى ما وراءه، وكذلك ما لم يرفع الختم والقفل عَنِ القلب؛ لم يدخل الإيمان.

وكذلك من أوصافها: الختم والطَّبع، قال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة:٧]. وقال تعالى: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [النَّحل:١٠٨]. والختم والطَّبع: هو التَّغطية على الشَّيء والاستيثاق منه؛ فلا يدخله شيء. فهما متقاربان في المعنى، لكن يختصُّ الطَّبع بأنَّه: ختم يصير سجيَّة وطبيعة، فهو تأثير لازم لا يفارق.

ومن أوصافها: ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ﴾ [الأنعام:٢٥]. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء:٤٦]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف:٥٧]. وهي جمع كِنَان كعِنَان وأعنة، وأصله: مِنَ السَّتر والتَّغطية، وقد أقرُّوا على أنفسهم

بذلك، فقالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فُصِّلت:٥]. **فذكروا:**

* **غطاء القلب**، وهي: الأكنَّة.

* **وغطاء الأذن**، وهو: الوقر.

* **وغطاء العين**، وهو: الحجاب.

والمعنى: لا نفقه كلامك ولا نسمعه ولا نراك، والمعنى: إنَّا في ترك القبول منك بمنزلة مَن لا يفقه ما تقول ولا يراك، قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِثْلِ الْكِنَانَةِ الَّتِي فِيهَا السِّهَامُ**»(١). وقال مجاهد: «**كَجُعْبَةِ النَّبْلِ**»(٢). وقال مقاتل: «**عَلَيْهَا غِطَاءٌ فَلَا نَفْقَهُ مَا تَقُولُ**»(٣).

ومن أوصافها: ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا ١٠٠ ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ [الكهف:١٠٠].

وهذا يتضمَّن معنيين:

أحدهما: أنَّ أعينهم في غطاء عمَّا تضمَّنه الذِّكر: من آيات الله، وأدلَّة توحيده، وعجائب قدرته.

---

(١) تفسير البسيط (١٩/ ٤١٩).

(٢) رواه عبد الرَّزَّاق في تفسيره (٢٦٨٨).

(٣) تفسير البسيط (١٩/ ٤١٩).

والثَّاني: أنَّ أعين قلوبهم في غطاء عن فهم القرآن، وتدبُّره، والاهتداء به. وهذا الغطاء للقلب أوَّلا، ثمَّ يسري منه إلى العين.

ومنها: ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٨٨]. وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النِّساء:١٥٥]. أي: لا تفقه ولا تفهم ما تقول، قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وقتادة ومجاهد: «**عَلَى قُلُوبِنَا غِشَاوَةٌ فَهِيَ فِي أَوْعِيَةٍ فَلَا تَعِي وَلَا تَفْقَهُ مَا تَقُولُ**»(١). وكأنَّهم ادَّعوا: أنَّ قلوبهم خلقت في غلف، فهم معذورون في عدم الإيمان؛ فأكذبهم الله، وقال: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾. وفي الآية الأخرى: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾.

فأخبر سبحانه: أنَّ الطَّبع والإبعاد عن توفيقه وفضله، إنَّما كان بكفرهم الَّذِي اختاروه لأنفسهم، وآثروه على الإيمان؛ فعاقبهم عليه بالطَّبع واللَّعنة، والمعنى: لم نخلق قلوبهم غلفًا لا تعي ولا تفقه، ثمَّ نأمرهم بالإيمان؛ وهم لا يفهمونه ولا يفقهونه، بل اكتسبوا أعمالًا عاقبناهم عليها بالطَّبع على القلوب والختم عليها.

ومنها: الحجاب، كما في قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ

---

(١) جامع البيان للطَّبريِّ (٢/ ٢٢٨)، الكشف والبيان للثَّعلبيِّ (٣/ ٤٤٠).

حِجَابٌ﴾ [فُصِّلت:٥]. وقوله: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء:٤٥]. والمعنى: جعلنا بين القرآن إذا قرأته وبينهم حجابًا؛ يحول بينهم وبين فهمه، وتدبُّره، والإيمان به. ويبيِّنه قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء:٤٦]. وهذه الثَّلاثة هي الثَّلاثة المذكورة في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فُصِّلت:٥]. فأخبر سبحانه: أنَّ ذلك جعله؛ فالحجاب يمنع رؤية الحقِّ، والأكنَّة تمنع من فهمه، والوقر يمنع من سماعه.

ومنها: الرَّان، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤]. أي: غطَّى عليها بسبب كثرت الذُّنوب والمعاصي منهم؛ فأحاطت بقلوبهم. وهو من أغلظ الحجب على القلب وأكثفها، قال مجاهد: «**هُوَ الذَّنْبُ عَلَى الذَّنْبِ حَتَّى تُحِيطَ الذُّنُوبُ بِالْقَلْبِ وَتَغْشَاهُ فَيَمُوتَ الْقَلْبُ**»(١). وقال مقاتل: «**غَمَرَتِ الْقُلُوبَ أَعْمَالُهُمُ الْخَبِيثَةُ**»(٢).

وفي سنن النَّسائيِّ والتِّرمذيِّ(٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول

---

(١) تفسير البسيط (٢٣/ ٣٢٥).

(٢) تفسير البسيط (٢٣/ ٣٢٥).

(٣) رواه التِّرمذيُّ (٣٣٣٤)، والنَّسائيُّ في الكبرى (١١٥٩٤)، وحسَّنه الألبانيُّ.

الله ﷺ قال: «**إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِنْ هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صُقِلَ قَلْبُهُ وَإِنْ زَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ:** ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾». قال التِّرمذيُّ هذا حديث صحيح.

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**كُلَّمَا أَذْنَبَ نُكِتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ حَتَّى يَسْوَدَّ الْقَلْبُ كُلُّهُ**»(١)، فأخبر سبحانه: أنَّ ذنوبهم الَّتِي اكتسبوها أوجبت لهم رَيْنًا على قلوبهم.

ومنها: الصَّمم والوقر، كما في قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة:١٨]. وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [محمَّد:٢٣]. وقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩]. وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فُصِّلت:٤٤]. قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**فِي آذَانِهِمْ صَمَمٌ عَنِ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ، وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أَعْمَى اللهُ قُلُوبَهُمْ فَلَا يَفْقَهُونَ، أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ، مِثْل: الْبَهِيمَةِ الَّتِي لَا تَفْهَمُ إِلَّا دُعَاءً**

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنَّفه (٣٠٩٥٨)، والبيهقيُّ في الشُّعب (٦٨٠٩).

وَنِدَاءً»[١]. وقال مجاهد: «بَعِيدٍ مِنْ قُلُوبِهِمْ»[٢]. والمعنى: أنَّهم لا يسمعون ولا يفهمون، كما أنَّ مَن دُعِي من مكان بعيد لم يسمع ولم يفهم.

ومنها: البكم، قال تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾. والبكم جمع أبكم، وهو الَّذِي لا ينطق، والبكم نوعان: بكم القلب، وبكم اللِّسان. كما أنَّ النُّطق نطقان: نطق القلب، ونطق اللِّسان. وأشدُّهما بكم القلب كما أنَّ عماه وصممه أشدُّ من عمى العين وصمم الأذن، فوصفهم سبحانه: بأنَّهم لا يفقهون الحقَّ ولا تنطق به ألسنتهم.

والعلم يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب: من سمعه، وبصره، وقلبه. وقد سُدَّت عليهم هذه الأبواب الثَّلاثة؛ فسُدَّ السَّمع بالصَّمم، والبصر بالعمى، والقلب بالبكم. ونظيره قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ﴾ [الأعراف:١٧٩]. وقد جمع سبحانه بين الثَّلاثة في قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف:٢٦]. فإذا أراد سبحانه هداية عبد؛ فتح قلبه وسمعه وبصره، وإذا أراد ضلاله؛ أصمَّه وأعماه وأبكمه.

---

(١) جامع البيان للطَّبريِّ بنحوه (٣/ ٣٠٩).

(٢) جامع البيان للطَّبريِّ (٢١/ ٤٨٥).

ومنها: الغشاوة، وهي: غطاء العين، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ [الجاثية:٢٣]. وهذا الغطاء سرى إليها من غطاء القلب؛ فإنَّ ما في القلب يظهر على العين من الخير والشَّرِّ، فالعين مرآة القلب تظهر ما فيه.

ومن أوصافها: الصَّدُّ عَنِ السَّبيل فلا تبصره، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [غافر:٣٧]. أي: صُدَّ عَنِ الحقِّ والهدى، بسبب الباطل الَّذِي زُيِّن له.

ومنها: الشَّدُّ على القلب، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾ [يونس:٨٨-٨٩]. فهذا الشَّدُّ على القلب، هو: الصَّدُّ والمنع؛ ولهذا قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يريد: امنعها، والمعنى: قسِّها وأطبع عليها، حتَّى لا تلين ولا تنشرح للإيمان»(١).

ومنها: الصَّرف، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التَّوبة:١٢٧]. فأخبر سبحانه: عن فعلهم وهو الانصراف، وعن فعله فيهم وهو صرف قلوبهم عَنِ القرآن وتدبُّره؛ لأنَّهم ليسوا أهلًا له فالمحلُّ غير

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره نقلًا عن تفسير القرطبيِّ (٨/ ٣٧٤).

صالح ولا قابل، فإنَّ صلاحيَّة المحلِّ بشيئين: حسن فهم، وحسن قصد. وهؤلاء قلوبهم لا تفقه وقصودهم سيِّئة.

ومن أوصافها: إزاغتها عَنِ الحقِّ، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصَّفُّ:٥]. وقال عن عباده المؤمنين أنَّهم سألوه: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾ [آل عمران:٨].

وأصل الزَّيغ: الميل، ومنه: زاغت الشَّمس إذا مالت، فإزاغة القلب إمالته، وزيغه ميله عَنِ الهدى إلى الضَّلال.

ومن أوصافها: إماتة القلوب كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [النمل:٨٠] وقوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾ [الأنعام:١٢٢] وقوله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا﴾ [يس:٧٠]. وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [فاطر:٢٢]. فوصف الكافر بأنَّه ميِّت، وأنَّه بمنزلة أصحاب القبور، وذلك أنَّ القلب الحَيَّ هو الَّذِي يعرف الحقَّ ويقبله ويُحبُّه ويؤثره على غيره، فإذا مات القلب لم يبق فيه إحساس ولا تمييز بين الحقِّ والباطل ولا إرادة للحقِّ وكراهة للباطل بمنزلة الجسد الميِّت.

نسأل الله العفو والعافية والمعافاة الدَّائمة في الدُّنيا والآخرة.